العقل فى الكتاب والسنة

الشيخ الدكتور/ محمد على الجوزو
مفتى جبل لبنان
لبنان

العقل هو الإنسان.. وبقدر ما تمتاز به هذه الملكة من قدرات بقدر ما تتقدم الإنسانية في مجال العلوم والفنون والإبداع والاختراع والاكتشاف، وبقدر ما تتفوق الأمم فى مجال العلم بقدر ما تمتلك أسباب القوة والسيطرة والمنعة والنفوذ، وكلما ارتقى العقل، ارتقت الحضارات وتقدمت الأمم.

والعقل فى الإسلام هو مدار التكليف والمسؤولية، يقول الرسول ﷺ: **[رفع القلم عن ثلاثة، عن المجنون حتى يبرأ، وعن النائم حتى يستيقظ، وعن الصبى حتى يعقل]** [1].

وكذلك فى سؤال الرسول ﷺ عن ماعز بن مالك الأسلمي الذي جاء يعترف أمامه بالزنا فقال **[أتعلمون بعقله بأساً تنكرون منه شيئاً ؟!]** فيجاب: ما نعلمه إلا وفى العقل، أى تام العقل كامله][2].

وقال الحكيم الترمذى:**[وقد قيل العقل يعقل النفس عن متابعة الهوى، كما يمنع العقال الدابة من مرتعها ومرعاها، والعقل اسم غير متبدل، وهو اسم عام، ولا يستعمل تصريف الأسماء إلا منه، يقال: عقل يعقل عقلاً وذلك معقول عنه].**

ويقول الحارث بن أسد المحاسبى على سبيل المثال: [العرب إنما سمت الفهم عقلاً لأن ما فهمته فقد قيدته وضبطته بعقلك كما البعير قد عقل (أى) أنك قيدت ساقه إلى فخذيه، وقالوا: اعتقل لسان فلان، أى استمسك] [3].

أما فى المفاهيم فقد ورد فى لسان العرب:**[الحجر والنهى، ضد الحمق.. عقل يعقل عقلاً ومعقولاً، وهو مصدر سماعي، قال سيبويه: هو صفة..].**

وقيل: العقل هو التمييز الذى به يتميز الإنسان من سائر الحيوان، أو يقال قلب عقول، ولسان مسئول، وقلب عقول، فهِمٌ.

وعقل الشيء يعقله عقلاً: فهمه.

مكانة العقل فى القرآن والسنة:

العقل فى القرآن الكريم له مكانة كبرى، بل مكانة أساسية، لأن القرآن يخاطب الإنسان العاقل ويشير منذ بداية الوحى إلى آفاق عقلية وعلمية دقيقة ترتبط بالمعرفة..

إن كلمة ﴿إقرأ﴾ تخاطب الإنسان وحده لأنه الذى يمتاز بهذه الخاصية وهى (القراءة) وهى قراءة فى الكون الكبير الذى يبدأ بالإنسان، يقرأ كتاب الخلق والإبداع قال تعالى: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ﴾ (العلق: ١ – ٢).

إنها المعجزة الكبرى كانت منها بداية الحياة، بداية التكوين البشرى، إنها تقول للإنسان (أعرف نفسك، من أي شيء خلقت؟!).

اقرأ أيها الإنسان العاقل.. وتأمل.. وتفكر.. وتدبر فى ذاتك.. اقرأ باسم ربك، هذا الإله العظيم، الذى حقق معجزة المعجزات وهى خلق الإنسان من نطفة..

والقرآن فتح صفحات المعرفة أمام الإنسان، وأمام العقل، كى يحيط بأسرار الكون ودقة تركيبه، وروعة نظامه.. من أجل الوصول إلى الحقيقة، إلى المعرفة، إلى الإيمان..

قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (البقرة: ١٦٤).

نحن أمام لوحة كونية كبرى، تترى أمامنا، لتعرض ظواهر فى الطبيعة، كل واحدة منها معجزة من المعجزات الكبرى، فخلق السموات والأرض على هذه الصورة الرائعة، وما فيها من موجودات تحيط بالإنسان، وتؤمن له أسباب الحياة، ثم اختلاف الليل والنهار، وكلاهما آية من الآيات التى تنظم هذه الحياة، وتربطنا بالزمن ربطاً دقيقاً، وهى جزء لا يتجزأ من النعم التى أنعم الله بها على الإنسان، ثم تستمر الآيات المعجزات التى تخاطب عقل الإنسان، فكر الإنسان، وجدان الإنسان..

نحن أما حركة من الطبيعة تثير النفس وتدفعها إلى التأمل والتصور والاستنباط، والوصول إلى المعرفة، معرفة الذات، ومعرفة الكون، لنصل إلى نتيجة حتمية، هى أن الله الذى خلق هذا

الكون.. على هذه الصورة الرائعة، إله يستحق أن يعبد.. وأن يستحق أن نقر له بالخضوع والإذعان والطاعة..

هذه الثنائية الرائعة فى خلق السموات والأرض، واختلاف الليل والنهار، والموت والحياة، وتكامل هذه الظواهر فيما بينها.. وتسخيرها للإنسان..

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (النحل: ١٢).

قال تعالى: ﴿ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (الشعراء: ٢٨).

نحن أما لوحة رائعة، لوحة حية، تحرك كوامن النفس البشرية، وتدعوها إلى أعمال الملكة الكبرى التى ميز الله بها الإنسان على جميع مخلوقاته، وهي ملكة العقل..

﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَـٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَـٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَفَضَّلْنَـٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ ﴾ (الإسراء: ٧٠).

كرم الإنسان بالعقل، وفضله على كثير من خلقه، بل فضله على جميع خلقه، وأسجد له الملائكة، وجعله سيداً، على من حوله وما حوله، بأن سخر له، الشمس والقمر، والليل والنهار، سخر له الهواء والماء، والبحار والأنهار..

قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَـٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلًا سُبْحَـٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ ﴾ (آل عمران: ١٩٠ – ١٩١).

ينقلنا القرآن الكريم من آية إلى آية، ومن دليل إلى دليل، ومن ظاهرة إلى ظاهرة، ليخاطب العقل، الذى هو (لب) الإنسان وجوهر وجوده، وموطن عبقريته، وإدراكه، وفهمه، والألباب هنا هى العقول الذكية، العقول التى تتعرف إلى الله من خلال معرفتها بخلقه، وعظمة خلقه.

﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ ﴾ (آل عمران: ١٩١).

وهنا مناط البحث.. وهذه مهمة العقل.. التفكير.. ثم التفكير.. والتأمل.. ثم الذكر.. ثم الإيمان..

من أجل هذا، رأينا كاتباً كبيراً هو عباس محمود العقاد يقدم لنا كتاباً بعنوان: (**التفكير فريضة**

إسلامية) ليقول لنا إننا قصرنا فى القيام بهذه الفريضة، فوصلنا إلى ما وصلنا إليه اليوم..؟!

إنها دعوة إلى العقل المسلم، لكى يعمل، لكى يتجدد، لكى يقوم بدوره فى ميدان المعرفة، المعرفة الدينية، والإيمانية، والمعرفة العلمية..

إن الآية الكريمة تصل بنا إلى نتيجة حتمية وهى: ﴿ **رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ** ﴾ (آل عمران: ١٩١).

إقرار من العقل، من الإنسان العاقل، أن هذا الكون العظيم لم يوجد صدفة، ولم يوجد عبثاً، ولم يوجد من غير هدف..

وفى حديث أبى الشيخ فى العظمة ورد فى الأثر: (فكر ساعة خير من عبادة ستين سنة).

وفى حديث موقوف عن أنس رضى الله عنه: (فكر ساعة خير من عبادة ثمانين سنة)

أى قيمة للفكر هذه.. وأى قيمة للعقل..؟!

التفكير فى ملكوت الله.. والتعرف إلى معجزة الخلق والإبداع.. واستنباط الأدلة والبراهين من خلال الطبيعة، وتكامل الظواهر الطبيعية فيما بينها، وتناغم هذه الطبيعة مع الإنسان وحياة الإنسان وحاجات هذا الإنسان، وكان الكون كله يدور حول هذا الإنسان فإن ذلك كله عبادة.. بل هو عبادة تفوق العبادات كلها.. فلا يكفي أن يعبد المخلوق خالقه وبارئه.. بل لا بد من التفكير فى صنع الله.. لمعرفة عظمة الله.. والإيمان به.. وعبادته..

التفكير يفوق العبادات كلها.. لأنه عبادة مرتبطة بالمعرفة.. مرتبطة بالقاعدة التى أرساها لنا رسول الله ﷺ..

(الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك).

قال تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ ۚ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ** ﴾ (الحج: ٧٣ – ٧٤).

يضرب الله الأمثال التي يخاطب بها عقل الإنسان.. ويقدم له الدليل تلو الدليل على قدرة الخالق وعظمته، من خلال الأمثال التى تصور لنا الإعجاز الإلهى أدق تصوير..

وفى السنة الشريفة، أحاديث عن العقل، نروى بعضها، قال رسول الله ﷺ للأشج أشج عبد القيس: **[إن فيك خصلتين يحبهما الله ورسوله، الحلم والأناة]** (٤).

قال النووى: (الحلم: العقل والأناة التثبت وترك العجلة).

وقال رسول الله ﷺ: **[إن الشاهد على الله عز وجل أن لا يعثر عاقل إلا رفعه الله. ثم لا يعثر إلا رفعه، حتى يجعل مصيره إلى الجنة]** (٥).

وقال: **[كرم المرء دينه، ومروءته عقله، وحسبه خلقه]** (٦).

وقال رسول الله ﷺ: **[ثلاث من حرمهن حرم خير الدنيا والآخرة، عقل يدارى به الناس، وحلم يرد به السفيه، وورع يحجزه عن المعاصى]** (٧).

هذه بعض الأحاديث التى وردت فى مكانة العقل، وجعله مدار الإيمان، ومبلغ الرشد، وأساس الخلق وركيزة النجاح فى الدنيا والآخرة..

أما الصحابة رضوان الله عليهم، فلهم أقوال لا يستهان بها، لأنهم كانوا أقرب الناس إلى رسول الله ﷺ، وعنه أخذوا المعرفة..

قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه: **[ليس العاقل من عرف الخير من الشر، بل العاقل من عرف خير الشرين]** (٨).

وقال على بن أبى طالب رضوان الله عليه: لا مال أعودُ من العقل، ولا فقر أضر من الجهل.

وقال فى صفين: العقل فى القلب.

(وقال فى حوار له مع شخص آخر يسأله فيه: ألست تقول لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ؟ فقال السائل: بلى. قال: تعرف تفسيرها ؟ قال. لا يا أمير المؤمنين، علمنى مما علمك الله.

فقال رضى الله عنه: إن العبد لا قدرة له على طاعة الله إلا بالله. ولا معصيته إلا به عز وجل، يا سائل أعقل عن الله، فقال: عقلت. فقال له الآن صرت مسلماً. قوموا إلى أخيكم المسلم وخذوا بيده) (٩).

وقال معاوية بن أبى سفيان رضي الله عنه: العقل عقلان: عقل تجارب وعقل نحيزة (طبيعة العقل الفطر) فإذا اجتمعا فى رجل فذاك الذى لا يقام له، وإذا تفرد كانت النحيزة أولاهما(١٠).

وقال معاوية أيضاً: العقل مكيال ثلثه فطنة.. وثلثاه تغافل(١١).

وقال معاوية لعمرو بن العاص رضى الله عنهما: ما بلغ من عقلك ؟ قال: ما دخلت بشيء قط إلا خرجت منه. فقال معاوية: لكنى ما دخلت بشيء قط أريد الخروج منه.

وقيل لعمرو بن العاص: ما العقل ؟ فقال: الإصابة بالظن، ومعرفة ما يكون بما قد كان(١٢).

ووصف المغيرة بن شعبة عمر بن الخطاب فقال: ما رأيت أحداً أحزم من عمر. كان

له فضل يمنعه أن يَخدع، وعقل يمنعه أن يُخدع [١٣].

نشأة علم الكلام:

لا شك أن الصراع الذي قام بين النصيين والعقليين أو بين أهل السنة والمعتزلة قد أعطى للعقل أبعاداً علمية وموضوعية وفلسفية أثرت الفكر الإسلامي، وبعثت فيه الحيوية والنشاط، مع محاولة كل جانب أن يستند إلى القرآن في منهجه، مما جعل التأويل الدقيق لآيات القرآن عملاً جليلاً يستحق أن نقف أمامه طويلاً لأنه جعل من تفسير المفردات اللغوية في القرآن على ضوء المنطق والفلسفة علماً خاصاً قائماً بذاته، ينسب إلى علم الكلام تارة وإلى التفسير تارة أخرى، وإن كان كل علم لا يستغني عن الآخر لوجود تلازم بينهما في أكثر الأحيان. إن مسئولية الإنسان عن أعماله كانت هى مدار الخلاف وحول هذه المسئولية جرى جدل علمى عظيم، لا يمكن إلا أن نعترف له بالفضل، لأن هذه المسئولية حدث إنساني منذ أقدم ايام التاريخ الانساني إلى يومنا هذا.

فإذا عدنا إلى التاريخ الإسلامى، فماذا نرى ؟ نرى حواراً على أرفع المستويات السياسية والعلمية شارك به الخلفاء وتأثر عدد منهم حتى كانت عهودهم خاضعة خضوعاً تاماً لبعض المدارس العقلية. كما حدث فى عهد المأمون من تأثره بآراء المعتزلة، ومحاولة إرغام العلماء التسليم بها، مع تعرضهم لشتى أنواع الفتنة والابتلاء كما حصل لأحمد بن حنبل عندما رفض القول بخلق القرآن الكريم.

لا شك أن السياسة لعبت دوراً كبيراً فى خلق هذا الجو الفكري، والصراع العلمى حول مسئولية الإنسان عن أعماله، وهو ما عرف بالجبر والاختيار، وذلك أنه (وحينما استقر الأمر لبنى أمية بعد الاتفاق الذى حصل بين معاوية وبين الحسن بن علي رضي الله عنهما، أراد بنو أمية أن يثبتوا فى أذهان الناس أن أمرتهم على المسلمين إنما كانت بقضاء الله وقدره، فأشاعوا الفكرة، وشجعوا مذهب الجبر، وأخذوا يبثون الفكرة بمختلف الوسائل [١٤].

(ولذلك كان رد الفعل الطبيعى أن يوجد من ذوى الضماء أن يعلن أن فكرة الجبر خطأ، وأن الإنسان حر مختار فيما يأتي وفيما يدع).

يقول الشيخ زاهد الكوثرى فى مقدمته لكتاب (تبيين كذب المفترى).

(وقد سمع هناك فى البصرة معبد بن خالد: من يتعلل في المعصية بالقدر، فقام بالرد عليه، ينفى كون القدر سالباً للاختيار في أفعال العباد، وهو يريد الدفاع عن شرعية التكاليف، فضافت عبارته، وقال: لا قدر والأمر أنف) [١٥].

ذكر المقريزى أن معبداً وعطاء بن يسار كانا يأتيان الحسن البصري ويسألانه:(يا أبا سعيد

إن هؤلاء – يريدان الأمويين – يسفكون الدماء، ويأخذون الأموال، ويقولون: إنما تجرى أعمالنا على قدر الله) فيرد الحسن: (كذب أعداء الله) (١٦).

كانت هذه بداية الاستناد إلى العقل، لأن المعتزلة تبنوا هذه المقالة، وأجمعوا على أن الله خلق قدرة فى العبد يخلق بها أفعال نفسه(١٧). فالإنسان في نظر المعتزلة فاعل مختار حر الإرادة، يتصرف بهذه القدرة التي منحته إياها العناية الإلهية كما يشاء، ويوجهها حسبما يريد، ويستغلها في خلق أفعاله).

وفى قضية التكليف قالوا: (إذا خلق الله العباد وكلفهم وجب عليه تعالى أن يزيح علله من كل وجه، وذلك يكون بإكمال عقولهم وأقدارهم على العمل. والقدرة لا تكون إلا قدرة على المأمور به وعلى ضده. ولهذا صار بعضهم إلى أن أول ما يخلقه الله يجب أن يكون عاقلاً مفكراً حتى يستطيع أن ينظر ويعتبر ويتوصل بالعقل إلى معرفة الخالق) (١٨).

(واتفقوا على أن أصول المعرفة، وشكر النعمة واجبة قبل ورود السمع، والحسن والقبح يجب معرفتهما بالعقل، واعتناق الطاف للبارى تعالى، أرسلها إلى العباد بتوسط الأنبياء عليهم السلام امتحاناً واختياراً ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حيَّ عن بينة (١٩).

كل ذلك من أجل أن ينفوا الظلم عن الله، وإلا فكيف يحاسب الناس على الشر وهو الذي أقدرهم على فعله، واستشهدوا لذلك بآيات كثيرة تدل على نفى الظلم عن الله وإسناده إلى الإنسان.

ولكن المعتزلة بالغوا في تقدير العقل، واستخدموا سلطة الخليفة في فرض آرائهم على الناس حتى قامت فى وجههم حملات شديدة يقودها أهل السنة والحديث من جهة (كأحمد بن حنبل وغيره)، وبعض كبار المتصوفة كالمحاسبى وأمثاله من جهة أخرى.

أما المحاسبى فقد أنشأ كتاباً فى ذلك، وأهمها كتاب (العقل) وكتاب (فهم القرآن) وهو يعتبر العقل وسيلة المعرفة، رغم معارضته للمعتزلة وإنشائه الكتب للرد عليهم، فهو يعرف العقل فيقول: (هو غريزة وضعها الله سبحانه فى أكثر خلقه لم يطلع عليه العباد بعضهم من بعض. ولا اطلعوا عليه من أنفسهم برؤية. ولا بحس. ولا بذوق، ولا طعم. وإنما عرفهم الله (إياها) بالعقل منه. فبذلك العقل عرفوه وشهدوا عليه بالعقل الذى عرفوه به من أنفسهم بمعرفة ما ينفعهم وما يضرهم).

ثم يقول: (فالعقل غريزة جعلها الله عز وجل في الممتحنين من عباده، أقام به على البالغين الحلم الحجة).

والمحاسبي أنشأ كتابه (فهم القرآن) للرد على المعتزلة (لقد رأى في نزعتهم العقلية طغياناً لا يتناسب ومقام العبودية، ورأى نزعتهم يحكم العقل فى القرآن وتجعله يسيطر على النص، ولو كان

كذلك لكان القائد فى الحقيقة وواقع الأمر، هو العقل لا الكتب.

وسواء كان العقل مستقلاً بإرادته، يخلق أفعال الإنسان، أو غير مستقل فإنه مخلوق لله، واستقلاليته لا تنفي أنه مخلوق، فإرادة الله كلية، وهى الإرادة الخالقة لكل شىء، وإرادة الإنسان جزئية وهى الإرادة المتعلقة بالأعمال الاختيارية التي يقوم بها الإنسان من خير أو شر، وفي هذه يتحقق معنى العبودية الكاملة لله، لأن إرادة الإنسان الحرة ليست إرادة مطلقة، بينما إرادة الله مطلقة ما شاء فعل وما لم يشأ لم يفعل.

من أجل هذا فإن الأشاعرة جاءوا بوجهة نظر تقف وسطاً بين الآراء المتطرفة، سواء أولئك الذين قالوا بالجبر، أو الذين قالوا بالاختيار. فقالوا: إن الفعل نفسه من الله الحادثة التى يتم بها الفعل منه تعالى أيضاً. والإنسان له الإرادة والتوجيه، فوافقوا المعتزلة بأن الإنسان حر فى إرادته من ناحية، وخالفوهم بأن هذه الإرادة إنما تتم بتقدير الله وإرادته.

نلاحظ هنا أن المعتزلة والمتصوفة والأشاعرة يجعلون للعقل قدرة على الاختيار، ولكن كل فريق من هؤلاء يختلف عن غيره فى نقطة واحدة هي تحديد العقل الاختيارى بالنسبة لإرادة الله عز وجل. فالمعتزلة يقولون: الخير من الله والشر من الإنسان وهم يريدون بذلك دفع الظلم عن الله، إذ لا يمكن أن يكون الله خالقاً للشر يحاسب عليه من وجهة نظرهم، أما المحاسبى فإنه يعتبر أن الله احتج على عباده بما ركب فيهم من عقولهم (وما الله بظلام للعبيد) وفى هذا يعتبر أن الله دفع الظلم عن ذاته بإيجاد العقل، وأما الأشاعرة فإنهم يقولون إن الخير والشر من الله، وإن قضاء الله سبق بذلك. وأن الإنسان يكسب عمله الذى قدره له بإرادته وباختياره، وهذا لا يتعارض مع إرادة الله، لأن علم الله الأزلى يحيط بكل شىء، لذلك سخر طرق الهداية للمهتدى وطرق الضلالة للضال.

العقل والإيمان:

وهناك كلام للأستاذ عباس محمود العقاد فى كتابه(الإنسان فى القرآن) [٢٠] يقول فيه كلاماً رائعاً: (وليكن الإنسان روحاً وعقلاً خلقه الله، أو يكن تركيباً عارضاً من تراكيب المادة لم يخلقه أحد، على قول المؤمنين بالمادة مجردة من الفكر والإرادة.

فكيف يتصور العقل إرادة الإنسان على كل احتمال ؟

إنه لا يتصورها إرادة مطلقة من جميع القيود، لأن إرادة إنسان واحد تنطلق بغير قيد هى قيد لكل إنسان سواه، وكيف يأتى هذا الإنسان الواحد بإرادته المطلقة منفرداً بها بين أمثاله المقيدين؟..

إما أن يوجد الناس جميعاً بإرادة مطلقة لكل منهم على سواء، فهذه هى الإحالة العقلية فى الفرض والتقدير، قبل الوصول بها إلى الإيجاد والتحقيق..

فإذا كانت الإرادة المطلقة هي إرادة الله، فخلق الناس مكلفين بغير إرادة لهم شيء غير معقول وغير مقبول؛ لأن سقوط التكليف لا معنى له فى هذه الحالة إلا أن يخلق الناس جميعاً متشابهين متماثلين متساوين في العمل الصالح الذي يساقون إليه، كما تساق الآلات، فلا فضل للعاقل على غير العاقل، ولا تمييز للإنسان على الجماد المجرد من الحس، فضلاً عن الحيوان.

فإذا وجب تكليف الإنسان، فالعقل الإنسانى لا يوجبه كما ينبغي أن يوجب على حالة واحدة لا سواها، وهى حالة الإرادة المخلوقة يودعها فيها الخالق كما ينبغى أن تودع، وهى لا ينبغى أن تودع إلا على هذا الفرض الذى يدعو إليه القرآن.

إن الحرية المخلوقة حرية صحيحة كما ينبغي أن تكون فى احتمال العقل المدرك المميز الذي يهتدي بإذن الله لما اختلفوا فيه..

ولا يقال إن الحرية التى تخلق ليست بحرية.. فان الحرية غير القيد سواء كانا مخلوقين أو مطبوعين، وسواء كانا من عالم الروح أو من عالم المادة عند التمييز فيهما كما تتميز قيمة نفيس أو غير نفيس، وكلاهما مخلوق أو مصنوع، فإن صنعنا للآنية الذهبية وللآنية النحاسية لا ينفى نفاسة الأولى ولا يسوي بين الآنيتين المصنوعتين.

وليس فى العقل شيء يسمى حرية مطبوعة، تعلو على الحرية المخلوقة بالانطلاق من جميع القيود. لأن الانطلاق من جميع القيود غير مقبول، وغير موجود.

وإذا وجدت للمخلوقات العاقلة حرية أوجدت لها إرادة، فلنرجع إلى العقل؛ لنرى كيف يتصورها العقل ــ أى عقل ــ وكيف تكون على احتمال واحد دون كل احتمال.

إنها لا تكون سواء فى كل إنسان؛ لأنها إذا امتنع فيها خلاف القوة لم يمتنع فيها خلاف الزمن والعمر، ولا خلاف المكان والجسد، ولا خلاف الصغر والكبر، ولا خلاف الحركة والجمود.

وإذا امتنع فيها كل هذا الخلاف، فليست هى بشيء؛ إذ ليست الموجودات التى لم تتمايز ولم تتنوع بأشياء يقبلها التصور، بل هى عدم ينقطع عن الوجود، أو كائن لا تمييز فيه ولا تكليف ولا حسنة ولا سيئة، ولا ثواب ولا عقاب.

فإذا وجد المخلوق حراً ذا إرادة فلا وجود له إلا بهذا الاختلاف فى حكم العقل كيفما كان في حكم النصوص.

وإذا قضى العقل بهذا دون سواه، فالعقل يتصور إرادة الله وإرادة الإنسان على احتمال واحد دون سواه.

وحكم الإيمان هنا وحكم العقل متماثلان؛ إذ كان كل ما عدا حرية (الإيمان) فرضاً غير

معقول، بل غير موجود..

ونحن إذن فى حل من القول: العقل وحده لتلقى التكليف؛ إذ كان المؤمن والفيلسوف معاً يذهبان بالعقل بين نقائض الفروض، فلا يستقران على فرض ممكن أو صالح غير اعتماد التكليف على العقل واعتماد العقل على الإيمان.

وإنما تساورنا الحيرة فى مسائل الإيمان عامة من خطأ شائع يوهم أناساً من المتدينين والمنكرين أن الإيمان على الدوام تسليم بما يأباه العقل وبما يتقبله ـ إذا تقبله ـ وهو مغمض العينين مكتوف اليد، يتساوى منه النظر وترك النظر، بلا اجتهاد ولا محاولة ولا موازنة بين ما يجوز وما يمتنع كل الامتناع.

هذا إيمان يلغى العقل ويلقى به بعيداً إلى طرف التصديق بغير سؤال ولا انتظار جواب.. فأما عقل ولا تصديق، وإما تصديق ولا عقل، ضدين لا يجتمعان..

والفرق بين الإيمان الذى يلغى العقل، والإيمان الذى يعمل فيه العقل غاية عمله، ثم يعلم من أين ينتهى وأين يبتدى الإيمان..

إن الإيمان هنا نتيجة لعمل العقل غاية جهده، وليس نتيجة لإهماله وإبطال وجوده.

والعقل يستطيع أن يصل إلى هذه النتيجة، فتلزمه حجة الدعوة إلى التصديق بالغيب المجهول..

والعقل يستطيع أن يعلم بضرورة الإيمان؛ لأن إنكار هذه الضرورة نقيضة عقلية للدين والعقيدة وحسب، ولا سبيل للعقل إلى الإيمان بوجود كامل مطلق الكمال يصح أن يؤمن به غير الاعتراف بضرورة هذا الإيمان ولزومه ـ منطقاً ـ قبل لزومه لهداية الضمير.

فالموجود الذي يصح أن نؤمن به هو وجود كامل أبدى ليست له حدود.. والموجود الذى ليست له حدود ولا يحيط به إدراك العقل المحدود.

فما النتيجة اللازمة لهذه الحقيقة التى لا شك فيها ؟؟

هى إحدى اثنين.. إما إنكار جزاف، وإما تسليم بحقيقة تفوق إدراك العقول..

والإنكار الجزاف يوقع العقل فى نقيضين، وهو تعطيل للعقل أضل له من كل تعطيل.

الإنكار معناه أن سبب الإيمان الوحيد، يكون هو السبب الوحيد للإنكار.

إن الوجود السرمدى الكامل المطلق الكمال هو الإله الذى نريده بالإيمان، وهذا هو حقه فى إيمان العقلاء بوجوده وربوبيته..

أثر العقل في الإيمان:

من خلال ما تقدم ندرك إلى أي مدى كان للعقل دور هام فى مجال البحث العلمي حول هـذا الدور.. ومن خلال الآيات القرآنية الكثيرة والتـي ورد فيهـا العقـل (يعقلـون) أو (يتفكـرون) أو ينظرون.. مدى ارتباط الإيمان الصادق بإطلاق طاقات العقل فى مجال التأمل والدراسة والبحث فى آيات الكون للوصول إلى هذا الإيمان..

قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ﴾ (الأنفال: ٢).

وقال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا ۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ ۖ وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ (غافر: ٦٧).

يجرى التركيز فى القرآن الكريم على معجزة خلق الإنسان من تراب ثم من نطفة؛ لأنها من أعظم الدلالات على قدرة الخالق جل وعلا.. وفى هذه الآية يتحدث المولى عز وجل عـن رحلـة وجود الإنسان وتدرجها من تراب ثم من نطفة ثم من علقة، ثم مرحلة الطفولة، ثم مرحلة الشباب.. ثم مرحلة الشيخوخة. ثم النهاية الحتمية لكل إنسان وهى الموت..

إنها قضية هامة جديرة بالتأمل والنظر والدرس والعبرة والعظة..

أيها الإنسان اعرف نفسك..

قال تعالى: ﴿ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ (الذاريات: ٢١).

هنا يقوم العقل بدوره العلمي والعملى يقوم بدوره الإيمانى فـى الاسـتنتاج للوصـول إلـى الإيمان..

وليس ضرورياً أن نستخدم الفعل (يعقلون) للوصول إلى الدلالات العقلية فهناك أساليب شتى استخدمها القرآن، واستخدم معها المنطق العقلى للوصول إلى الإيمان.

قال تعالى: ﴿ قُتِلَ ٱلْإِنسَـٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴿٢٣﴾ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَـٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا

حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾ ﴾ (عبس: ١٧ – ٣٢).

قال تعالى: ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ الطور: ٣٥

وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾ ﴾ (الانفطار: ٦–٨).

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾ بَلْ قَالُوا۟ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوٓا۟ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴾ (المؤمنون: ٨٠ ٨٢).

الحرية والعقل:

الحرية والعقل صنوان فى الإسلام، والحرية لزام للإنسانية وعليها تقوم المسئولية. وحيث تنعدم الحرية بالقهر أو بالعجز تتعين الهجرة إلى حيث يجد الإنسان حقوقه التى قررتها له السماء وفتحت له أرض الله الواسعة قال تعالى: ﴿ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ﴾ (النساء: ٩٧).

والحرية فى الإسلام واسعة ومتنوعة: حرية نفس، وحرية فكر، وحرية قول، ومنها: حرية العقيدة، وحرية الامتناع، وحرية الجدال والمطالبة بالدليل. وكل أولئك تعبير عن الإرادة المستقلة للإنسان.

لا يُكره الإسلام أحدًا على رأى. والقرآن يضع المبدأ فى أقوى العبارات بالنهى والأمر بقوله: ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ﴾ (البقرة: ٢٥٦).ويقول: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ (الكهف: ٢٩). بل يقول سبحانه: ﴿ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴾ (يونس: ٩٩).

ويزداد المبدأ وضوحاً حيث يأمر القرآن بإحسان الجدال مع غير المسلمين قال تعالى: ﴿ ۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ﴾ (العنكبوت: ٤٦).

ويقول فى المسؤولية الشخصية وحرية الإرادة ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا

يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ ﴾ (المائدة: ١٠٥).

وقال تعالى: ﴿ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَـٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾ ﴾ (النجم: ٣٨ – ٤١).

وقال تعالى: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ ﴾ (المدثر: ٣٨).

وقال تعالى: ﴿ مَّنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾ ﴾ (فصلت: ٤٦).

ويطالب بالدليل كما قد قدمه، قال تعالى: ﴿ لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ﴾ (الأنفال: ٤٢).

قال تعالى: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ ۖ ٱئْتُونِى بِكِتَـٰبٍ مِّن قَبْلِ هَـٰذَآ أَوْ أَثَـٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٤﴾ ﴾ (الأحقاف: ٤).

قال تعالى: ﴿ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾ (النمل: ٦٤).

وهكذا نجد العقل والإحساس وحرية التفكير واستقلال الإرادة واستعمال العقل وأعذاره أو إنذاره ومحاسبته على عمله بمواهب وهبها الله له.

يريد سبحانه أن يكون الانتفاع بها مؤديًا إلى الامتناع بالحقائق لا بمجرد الطاعة والامتثال. فإنما تجيء الطاعة والامتثال نتيجة للإيمان لا سبباً له.

بالعقل والحرية يعرف الإنسان برهان ربه ويقدره قدره، ويقدم له برهان عمله بتعاليمه. فالطريق إلى الله ذو اتجاهين نزولا إلى الأرض وصعوداً إلى السماء وهو تعالى لم يترك الإنسان سدى بل ملأ الأكوان بآياته ليقتنع الإنسان بالآية وليتقى الله حق تقاته، ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها، ويفتح لها أبواب رحمته والأمل فى مغفرته ليدلى كل امرئ بدلوه فى عمارة الدنيا.

ولولا العقل والحرية ما تم اقتناع ولا وجبت تكاليف ولا طولبت الأنفس بأن تعلم وتعمل(٢١).

الحق فى التعلم:

حرص الإسلام على العلم، وعلى الاستزادة منه، ورفع قيمة العلماء، وفرض على المسلمين

أن يأخذوا بالعلم..

(طلب العلم فريضة على كل مسلم).

قال تعالى: ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴿١١٤﴾ ﴾ (طه: ١١٤).

وقال تعالى: ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾ ﴾ (المجادلة: ١١).

وما قيمة العقل إذا لم يتزود بالعلم..؟

لقد بلغ المسلمون شأواً كبيراً في ميدان العلم والإبداع والاختراع والطب والحساب والهندسة.

ولكنهم تقاعسوا عن اللحاق بالأمم المتقدمة فى عصرنا هذا بفعل ما تعرضوا له من استعمار حاقد لبلادهم، وبحكم التخلف الذى أصاب الكثير من مجتمعاتهم، ولذلك فإن من حق المسلمين اليوم أن يبحثوا عن الطرق الحديثة التي تجعلهم يأخذون بأسباب العلم الحديث، للحاق بركب الحضارة، والمنافسة فى ميادين التفوق العلمى؛ لأن أسباب القوة اليوم مرتبطة بالعلم والذين يحكموا العالم اليوم، أخذوا بالعلم حتى امتلكوا أسباب القوة، واخضعوا المسلمين لجبروتهم وطغيانهم..

ولقد رأينا كيف نشأت فلسفة الإسلام فى دوائر علم الكلام وأصول الفقة، وازدهرت فى مجالس المناظرة وفى المؤلفات والخلافات بين أصحاب الآراء المتعارضة أو المتقاربة. وبلغت مبالغ رفيعة فى مؤلفات العلماء التطبيقية، مثل: الكندى، وجابر بن حيان، والرازى، وابن الهيثم، والبيرونى، وابن سينا، وابن الطفيل، وابن رشد، وكانت عدة المتناظرين حجاجاً بأصول الفقه بوجه عام.

لقد فرض القرآن والسنة طلب العلم على كل مسلم. ورأى الرسول ﷺ مجلسين في المسجد فاختار مجلس التعليم، وقال: (بالتعليم أرسلت) وشهد المسلمون أصحابه معلمين ومتعلمين قبل أن يحملوا السيوف للجهاد، ثم رأوا علماء القرن الأول يتصدرهم أبناء الصحابة العظماء؛ كابن عباس، وابن عمر، وابن عمرو، وابن الزبير، وأخيه عمرو، وابنى عبد الرحمن بن عوف أبى سلمة، وأخيه حُميد. وعلى هذا الجيل تعلم (فقهاء المدينة السبعة) فى القرن الثانى للهجرة.

ولما قال عليه الصلاة والسلام: **[تناصحوا فى العلم فإن خيانة أحدكم فى علمه أشد من خيانته فى ماله. والله سائلكم عنه]** كان يقربه من العبادة كما يعلن أن حق التعلم فى العلم واجب على العلماء لله وللناس. كان ابن عمر يحاول جهده أن يصنع ما كان يصنعه رسول الله فكان قدوة للجميع في تحمل مسئولية التعليم والترغيب فيه مع الورع المعهود عنه.

يقول تلميذه مجاهد: (صحبت ابن عمر لأخدمه فكان يخدمنى) [٢٢].

ويكفى المسلمين فخراً أن وجودهم فى أسبانيا (الأندلس) كان السبب فى انتقال الحضارة العلمية إلى أوروبا.

وكان ابن رشد صاحب الفضل في تعريف الأوروبيين بفلسفة أرسطو؛ إذ جمع كتبه وقارن ترجماتها واستخلص الصحيح منها وشرحه، فسمى عند أهل أوروبا (بالشارح) وفى ذلك قول (رينان) فى القرن الماضى (ألقى أرسطو على الكون نظرة صائبة ففسره وشرح غوامضه، ثم جاء ابن رشد، فألقى على فلسفة أرسطو نظرة خارقة تفسرها وتشرح غوامضها)[٢٣].

ومن محاربة علماء أوروبا فى عصره من تحريم الكنيسة لتعليم كتب ابن رشد وحرق كتبه، صار طليعة الفكر الحر واستعمال العقل فى أوروبا مع بدايات عصر النهضة الأوروبية. وعلا ذكره فى التاريخ العالمى. وما كانت حرب الكنيسة له إلا محاولة لإسكات الصوت الجهير الذى تعالى فى ضمير الإنسانية آذاناً بالحضارات الإسلامية ومنهاجها العلمى، وإعلانًا عن ترجمات كتبها التى تملأ الأديرة ومكتبات الجامعات والأحبار والأمراء وغيرهم من المتعلمين من أهل أوروبا[٢٤].

استشهد ابن رشد بتمجيده للعقل ولا يرى فصالاً، بل يرى اتصالاً بين الفلسفة والشريعة، وإنها أختها الرضيعة، وطال أمر الجدل بين أنصار ابن رشد من علماء اللاهوت فى أوروبا وبين خصومه منهم منذ القرن الثالث عشر حتى القرن السادس عشر الميلادى.

يرى ابن رشد أن الكتب السماوية تبتغى توجيه الناس إلى العمل الصالح ليبلغوا الكمال الاجتماعى وأن (من اشتغل بعلم التشريح ازداد إيمانًا بالله تعالى) فالعلم طريق مؤكد لإثبات الربوبية والتوحيد والقدرة. حيث كل شىء موزون. ويعلن أن الإنسان لا يصل إلى الكمال إلا بالدرس والتفكير والطهارة وتكميل العقل المفكر. ولا يكفى لذلك التأمل العقيم الذى يزعمه بعض المتصوفة[٢٥].

(إن أوروبا تدين للعرب وللحضارة العربية.. وكان يجب على أوروبا أن تعترف بهذا الصنيع من زمن بعيد، ولكن التعصب واختلاف العقائد أعمى عيونهم حتى أننا نقرأ ثمانية وتسعين كتاباً من مائة فلا تجد إشارة للعرب، وتقول عن دور العلوم العربية: (إنها سبة أن يعلم أهل العلم من الأوروبيين أن العرب أصحاب نهضة علمية لم تعرفها الإنسانية من قبل، وأن هذه النهضة فاقت كثيراً ما تركه اليونان والرومان. ولا يقرون أن العرب ظلوا ثمانية قرون طوالاً يشعون على العالم علماً وفناً وأدباً وحضارة.

كما أخذوا بيد أوروبا فأخرجوها من الظلمات إلى النور ونشروا ألوان المدنية أين ذهبوا ثم

تنكر أوروبا على العرب هذا الفضل) (٢٦).

المخاطر التى تهدد العقل:

لا شك أن البدع والخرافات التي تشيع فى مجتمعنا، خاصة عن طريق بعض من يدعون التصوف.. وأصحاب الطرق الذين يحترفون التجديف والدجل ويلعبون بنفوس العامة، إلى جانب بعض الصراعات التى نشأت حول قضايا كلامية والتى دفعت بعض الفرق إلى تكفير من يخالفها في الرأى، كل ذلك أدى إلى شيوع الجدل العقيم، والخلافات اللفظية، وتسببت في إثارة الفتن بين المسلمين.. خاصة بعد ظهور مدارس متشددة فى بعض الدول العربية. كل ذلك أدى إلى الإضرار ضرراً بالغاً فى الحياة الفكرية..

ومن ناحية أخرى، أدت البطالة، والفراغ الذى يعيشه الشباب، إلى إقباله على الخمر والمخدرات وحياة اللهو والانغماس في الشهوات والنزوات والضياع بدل انصرافه الى العلم والبناء والنشاط الفكري والعقلي، فانتشرت الأمراض الجنسية الخطيرة..

مما يهدد الأسر بأخطر العواقب.. ويفسد العقول والنفوس..

لقد كان للأعلام المرئى أثر كبير فى إشاعة الظواهر الاجتماعية البعيدة عن منهج الإسلام الاخلاقي، والتقليد الأعمى لعادات الغرب.. والسلوك المتحلل من القيود والعادات والتقاليد العربية.. مما أفسد حياة الأجيال الطالعة، وجعلها تغرق في الانحراف والانحلال..

إن واجبنا هو حماية هؤلاء الشباب من الضياع.. وتامين الحياة الكريمة لهم، والحد من الانفلات الإعلامى الذى يثير الغرائز الحيوانية أكثر مما يقدم من البرامج العلمية والثقافية التي تشد الشباب إلى الجدية والعمل المثمر..

إن ظواهر الانحلال والتفلت الأخلاقى، أكبر خطر يتهدد مستقبل الشباب، ويحول بينه وبين أعمال العقل فيما هو مفيد وبناء مثمر للوطن والأمة.

إن حقوق هؤلاء الشباب فى الحفاظ على استقرارهم النفسى، وتأمين الحياة الكريمة لهم، وإيجاد الأندية التي تشدهم إلى العلم والثقافة والتقدم، وهو أهم ما يحفظ عقولهم من الضياع، وحياتهم من الأمراض الوبائية، ومن المخدرات، والخمور، والزنا.. وكل ذلك حق للأجيال على المسئولين والقادة ورواد الفكر وأرباب العمل.

قال تعالى: ﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ

أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ ﴾ (الكهف: ٢٨).

وقال تعالى: ﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ (الجاثية: ٢٣).

---

(١) سنن أبى داود كتاب الحدود جـــ ٤ ص ١٩٧.

(٢) صحيح مسلم ١١ ص ٢٠٢ –٢٠٣.

(٣) الحكيم الترمذى، بيان الفرق بين الصدر والقلب والفؤاد واللب ٧٦ .

(٤) متفق عليه رواه مسلم فى صحيحه، جـــ١ ص ١٨٩ شرح النووى..

(٥) ابن أبى الدنيا (العقل وفضله).

(٦) المصدر السابق.

(٧) المصدر السابق.

(٨) العقد الفريد جـــ٢ ص ٤٢٦..

(٩) الاسترايني.

(١٠) كتاب العقل ٦٧٢.

(١١) العقد الفريد، ج٢،ص٢٤٢.

(١٢) المصدر السابق، ج٢، ص٢٤١.

(١٣) المصدر نفسه، ج١، ص٥٢.

(١٤) التفكير الفلسفى فى الإسلام للدكتور عبد الحليم محمود شيخ الجامع الأزهر، جـــ ٢ ص ١٩٧.

(١٥) تبيين كذب المفترى للشيخ زاهد الكوثرى.

(١٦) الخطط للمقريزي جـــ ٤ ص ١٨١_ ١٨٢ .

(١٧) الملل والنحل، ص ٤٥.

(١٨) المعتزلة، ص ١٠٥ .

(١٩) الملل والنحل، ص ٤٥.

(٢٠) أستاذ السائرين، ص ٤ للدكتور عبد الحليم محمود.

(٢١) السابق، ص ١٦٠ .

(٢٢) المصدر السابق.

(٢٣)المصدر السابق.

(٢٤)المصدر السابق.

(٢٥) المصدر السابق.

(٢٦)المصدر السابق.